انطباعات ذاتية

من رام الله عبر غزة ونابلس
منارات أمل في مكان معتم

بقلم: د. فؤاد مغربي *

كانت رحلتي إلى غزة نهاية حزيران ٢٠٠٥، وهي الأولى منذ اندلاع الانتفاضة، وقد نظمت الزيارة من قبل المجلس البريطاني الذي أشعر بالامتنان إليه. كانت مهمتي تتمثل في تكوين تصور متكامل حول أعمال مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، وفي الوقت نفسه زيارة المبنى الجديد لمركز القطان للطفل.

أما بخصوص المهمة الأولى، فقد كانت زيارة لفرع مركز البحث والتطوير التربوي الذي أسسناه العام ١٩٩٩ في رام الله لإجراء بحوث في حقل التربية والتعليم، وتنفيذ برامج تدريب ملائمة للمعلمين. ويدير هذا الفرع بشكل جيد زميلي د. محمد أبو ملوح الذي يشرف على طاقم من الباحثين في مجالات عدة يتميز بالنشاط الكبير والالتزام العالي.

والمهمة الثانية تمثلت في زيارة المبنى الجديد لمركز القطان للطفل، وهو مشروع طموح لمؤسسة عبد المحسن القطان يتغيا لعب دور رئيسي في تعزيز حياة الأطفال في غزة. لقد أذهلني حقا التصميم المعماري الرائع لهذا المبنى الجديد، والاستخدام الذكي للمساحة الداخلية. ويدار المركز من قبل ريم أبو جبر، وهي شابة ذكية ونشيطة جداً، وتشرف على طاقم رائع من العاملين. ولقد تصادفت زيارتي مع وجود مستشار زائر من سكوتلندا يعمل على تدريب العاملين في المركز على العمل كأعضاء فريق.

وبالمقابل، فقد راقبت عن كثب ورش عمل مع أكثر من مائة مدرس في مركز القطان للبحث والتطوير التربوي. وعبر يومين متتاليين، استمعت إلى أسئلة وأجبت عنها. ولقد أخبرني المعلمون عن مدى سعادتهم لنوعية العمل الذي يقومون به. كما أشار لي عدد منهم إلى أنهم يطبقون ما يتعلمونه في غرفهم الصفية.

أما أفراد طاقم مركز القطان للطفل، فإنهم منشغلون في وضع اللمسات الأخيرة لجعل المبنى جاهزاً للافتتاح الكبير في تشرين الثاني من العام ٢٠٠٥. فالطاولات والكراسي قد تم تركيبها، وهناك ألوان متباينة لمجموعات مختلفة الأعمار. أجهزة الكمبيوتر وشاشات الفيديو تم ربطها. ولعله من السهل تخيّل كيف ستتأثر حياة العديد من أجيال الأطفال في قطاع غزة بطريقة إيجابية من خلال الاتصال والتواصل مع هذه المؤسسة الرائعة.

وبعد انتهاء زيارتي لغزة، اتجهت إلى نابلس للاجتماع بباحثين من مركز القطان للبحث والتطوير التربوي (رام الله)، الذين كانوا يقدمون دورات صيفية مكثفة لمدرسين حول موضوعات عدة.

ومرة أخرى، فأنا هنا أراقب وأستمع، وأحياناً أشارك في النقاشات. لقد كان مستوى النقاش عالياً بالفعل وبكل المقاييس، فالمدرسون متأثرون ومتحمسون جداً. فهناك ما يزيد على ٦٠ معلماً كانوا يعملون ويتبادلون الأفكار لمدة خمسة أيام ونصف مع باحثين يناقشون طرقاً جديدة في التفكير والتعليم والتعلم.
ومن الأهمية بمكان أن نسجل هذه الأفكار ونتبادلها مع آخرين، وذلك لأسباب عدة: فعلى النقيض من الإحساس العام باليأس الناشئ عن وضع سياسي متجمد، يوجد هنا شباب وشابات تواقون فعلاً للقيام بمهام تمثل استثماراً ملحوظاً- وإن يكن صغيراً- في المستقبل.

إن احتشاد المعلمين في مركز القطان مع طاقم الباحثين للتخطيط والاستعداد للعام الدراسي الجديد الذي يبدأ مطلع أيلول ٢٠٠٥ يعني أن حالة اليأس لم تتمكن من شل فعاليتهم، فهم يعيشون ويعملون ويخططون من أجل المستقبل.

من السهل عليك أن تكتشف حالة اليأس عندما ترى المرء يتحرك بين رام الله والقدس الشرقية. فمن اللحظة التي يترك فيها الإنسان هذه المنطقة المركزية من فلسطين، يبدأ برؤية الأمور بشكل مختلف. فالمشكلة الفلسطينية تبدو مختلفة عندما تزور قرى مثل دير غسانة، أو المزرعة القبلية، كما فعلت أنا في جولة بإشراف مركز المعمار الشعبي "رواق"، الذي يعنى بإعادة تأهيل المباني القديمة والحفاظ عليها. وتبدو المشكلة أكثر اختلافاً عندما تتجه إلى نابلس وتستمع إلى الناس وهم يتحدثون. ولا تزال مختلفة تماماً عندما تجلس في فندق الديرة على شاطئ غزة. لا بأس، فالدمار الشامل الذي تسبب به الاحتلال الإسرائيلي في كل مكان يقترب من جرائم الحرب في التاريخ الموثق. ومع ذلك يمكنك أن تلمس أن هذا الدمار لم ينل من الناس العاديين، لكنهم مع ذلك يتعاملون مع فقرهم، والبنى الاجتماعية المنهارة حولهم، وتقلص الفرص لديهم، وقلة كفاءة سلطتهم السياسية التي يُفترض أن تجعل حياتهم أفضل، يتعاملون مع ذلك كله بطرق تعود بالضرر عليهم.

إن الإحساس باليأس والإحباط إحساس متفاقم، وهو ناتج من عدم الاتصال وعدم تراكم المعرفة، فالمرء هنا لا يعرف ما الذي يفعله نظيره هناك، ويمكنك أن ترى جزراً صغيرة من عمل ملتزم ورائع في كل مكان، لكن انعدام الاتصال عبر الشبكات يؤدي إلى عدم تراكم المعرفة، فيما السلطة السياسية مهتمة فقط بالقضايا الكبيرة، وهي لا تستطيع، بل تفشل، في التعامل مع القضايا الصغيرة. والناس العاديون، والتجمعات السكانية الصغيرة، والقرى، ومخيمات اللاجئين، وحتى الجيران، يُتركون وحدهم لتحمل مسؤولية الدفاع عن أنفسهم، بينما تجادل السلطة السياسية في ما إذا كان هناك عملية سلام أم لا.

القرى الصغيرة متروكة لتتدبر أمرها في صراعها الهرقلي ضد الجدار الإسرائيلي البغيض الذي ينتزع منها أرضها وحياتها ومصدر رزقها. يبدو الأمر كما لو أننا عدنا إلى العام ١٩٤٨، حيث تحاول القرى الفلسطينية المعزولة أن تقف في وجه مشروع الكولونيالية الصهيونية المنظم والمموّل بشكل كبير، وضد التطهير العرقي، بينما تتصرف القيادة السياسية الفلسطينية، المنتخبة بالفعل هذه المرة، كما لو أنها في الخارج لتناول طعام الغداء. وكما قال لي مؤخرا حداد في السادسة والسبعين من عمره: "لدينا قيادة مهزومة... وشعب قوي"!
كل شخص في غزة لديه قصة ليرويها عن الطريقة غير اللائقة التي يعامله بها الناس بالفعل في الضفة الغربية. وقد سمعت تعليقات من أناس يرتدون ثوب الثقافة أو التثاقف في رام الله يرون بأن الاتصال المقترح عبر خط سكة حديد بين غزة والضفة هو في الحقيقة فكرة سيئة، لأنه سوف يؤدي إلى "غزو غزّاوي"!
وفي نابلس يستمع الواحد إلى النخبة التجارية وأعضاء من الطبقة الإقطاعية يتحدثون بازدراء عن اللاجئين في مخيم بلاطة، ونسخة الازدراء هذه تتكرر في النقاشات والجدالات التي تدور في أوساط النخبة المثقفة في رام الله عن مخيم الأمعري أو مخيم الجلزون المجاور.
إن حالة التشظي التي يعاني منها المجتمع الفلسطيني تفاقمت خلال سني الانتفاضة الثانية إلى الحد الذي أصبحت معه خطوط التفرّد والتميّز غائبة على نحو أكثر عمقاً. والآن ثمة توجّه حاصل لإعادة تعريف المجتمع الفلسطيني. فمحاولات إغلاق البارات والمطاعم التي تقدم الكحول في رام الله، والضغوطات لإلغاء حدث موسيقي لأن النجم يفضل أن يغني أغاني الحب بدلاً من الأغاني الوطنية هي من المظاهر الأولى في حرب ثقافية تُحرض الديني ضد العلماني.
ولعجزهم عن تحقيق أي تقدم في الصراع ضد الإسرائيليين، تحوّل الفلسطينيون نحو داخلهم وشرعوا يوجهون الضربات ضد أنفسهم. وفي ظل غياب القيادة السياسية الفاعلة يزداد الوضع عتمة وسواداً.

إن إخفاق القيادة السياسية الفلسطينية هو العنوان الرئيس لحكومة "أبو مازن" الحالية. فجذور هذا الإخفاق تكمن في الهياكل والبنى القديمة والفاسدة التي طبعت منظمة التحرير الفلسطينية بطابعها لعدة عقود من الزمن. والثمن الذي يتكبده المجتمع الفلسطيني سيكون كبيراً جداً. وفي الحقيقة يشكل إخفاق القيادة السياسية بالنسبة إلى المجتمع الفلسطيني خطراً أكثر تهديداً من ذاك الذي مثلته القيادة الإسرائيلية الجشعة لفرض إرادتها بقوة السلاح.

تُرى ما الذي يمكن عمله في ظل مثل هذا التشظّي وغياب القيادة الفاعلة؟ الإجابة الواضحة هي أن الناس سوف يعملون في مجتمعاتهم المحلية على قضايا لهم سيطرة عليها، وسوف يحاولون القيام بأفضل ما يستطيعون تحت ظروف أقل مثالية.
ولهذا السبب بالضبط تجد أن هناك معلمين راغبين في تطوير مهاراتهم، ويتطلعون إلى استثمار الوقت والجهد لتحسين أدائهم.
ولهذا السبب أيضاً تجد مركزاً ثقافياً ضخماً للطفل قد شُيِّد في غزة محاطاً بدمار من صنع الاحتلال الإسرائيلي، ووهن ابتُليت به سلطة سياسية مهملة... منارات أمل في مكان معتم.

وقد يكون من بين المهام الأكثر تحدياً وإلحاحاً بالنسبة إلى المربين والمعلمين أن يُنتجوا تربية جديدة تعترف بالاختلاف، وتحترم "الآخر"، وتحاول التعامل مع التنوّع باعتباره رصيداً وليس عائقاً.

الهوامش:

* مدير مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، وأستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية في جامعة تنيسي في تشاتانوغا.